مقطع فلسطيني من وردة الجزائرية

معن البياري

تكتمل اليوم، 17 مايو/ أيار، تسعة أعوام على وفاة وردة الجزائرية عن 73 عاماً. ولعله من التقليدي أن يُستعاد في ذكراها ما كانته صاحبة واحدٍ من أصوات زمن الغناء العربي الجميل، والإتيان على سيرتها الشخصية والفنية، وأظنها سيرةً ذائعة، منذ مولدها في باريس من أب جزائري وأم لبنانية، ثم ارتحالها مع أسرتها في صباها الأول إلى لبنان، وتسجيلها أولى أغنياتها في الإذاعة السورية، في 1960، واستدعائها إلى القاهرة في ذلك العام، للمشاركة في أداء أوبريت «وطني الأكبر» (كلمات أحمد شفيق كامل، لحن محمد عبد الوهاب)، مع عبد الحليم وشادية (من مصر) ونجاة الصغيرة (من سورية!) وصباح (من لبنان)، ولتكون وردة فتّوكي (اسمها قبل شهرتها) ممثلةً جناح المغرب العربي. وتأديتها أغنياتٍ أولى بدعم من حلمي رفلة، ومشاركتها في فيلمين سينمائيين، وجها لمغنيةٍ في بواكير عشرينياتها من الجزائر في فضاء مصر الفني، في زمن النجوم وجمال عبد الناصر، قبل أن يُجبرها والدها على مغادرة مصر إلى بلدها، ويزوّجها من مسؤول كبير في السلطة، بعد رفضه المبرم طلب ملحنٍ شاب اسمه بليغ حمدي الزواج منها. لتعتزل الغناء، وتنجب ابنها وابنتها، حتى إذا طلب الرئيس بومدين مشاركتها في 1972 في حفل عيد الاستقلال، ويكون بليغ من المدعوين في الأثناء (بديلا عن رياض السنباطي)، فتنعطف حياة الفنانة إلى طلب الطلاق من زوجها، ثم تُغادر إلى القاهرة، فتعود إلى الغناء باندفاعةٍ أقوى، ونضجٍ فني أرفع، وبألحانٍ بديعة لبليغ حمدي، زوجها سبعة أعوام، قبل طلاقهما (ألحّت عليه في مشادّة بينهما في أبوظبي، جعلت بليغ يكتب أغنية «كان يا ما كان» هناك، والتي أدّتها من تلحينه لاحقا ميادة الحناوي). وتستمر النجمة وردة في رحلة غناء، حبّةً حلوةً في عنقودٍ رائقٍ من أجمل الأصوات (صباح، نجاة، شادية، سعاد محمد، فايزة أحمد)، بألحان بليغٍ (غنّت له بعد الطلاق أيضا) وعبد الوهاب والسنباطي (وغيرهم) وتاليا حلمي بكر وصلاح الشرنوبي (وغيرهما).

وإلى ما هو ملحوظ في هذه السيرة (الموجزة هنا) من أبعاد عربية جامعة فيها، يحسن التذكير بأن وردة أدت نحو ثلاثين أغنية وطنية للجزائر، والعدد نفسه لمصر (دعك من أغنيتها البائسة في مديح حسني مبارك في خريفه). ولما كانت فلسطين قضية العرب المركزية الأولى، فإنك لا تجد مغنيا أو مغنية في الستينيات والخمسينيات لم يؤد أغنية أو أكثر لفلسطين (لمحمد قنديل أغنية عن غزة)، وللوحدة العربية، وللمقاومة، عبد الحليم وأم كلثوم وشادية وكارم محمود وفايدة كامل وسعاد محمد و... . كان هذا إيقاعا عاما في أجواء وطن عربي واحد، يلهج كل ناسه بتحرير فلسطين السليبة. وفي تلك الأثناء، سجلت وردة، في العام 1962 لإذاعة فلسطين، أغنيتها «ثلاثة إخوة»، كلمات علي مهدي ولحن عبد العظيم محمد، وأدّتها في غير حفلة في القاهرة، وتتعلق بالمذبحة التي ارتكبتها منظمتان صهيونيتان في 1948 في قرية دير ياسين. واتصف لحنها بإيقاع المارش العسكري، وبالحس الجنائزي الذي يتناوب مع وقع قوي. أما كلماتها، فإلى البساطة الضافية فيها، فإنها اتسمت بنزوع حكائي عن ثلاثة إخوة فلسطينيين يقتحم «الغاصب» في يوم المذبحة المشؤوم، منزلهم، أمام أمهم التي بدأت تصيح و«تولول» (نعم تولول)، وقتلوها، وقتلوا اثنين من الثلاثة وأصيب الثالث. وتأتي الأغنية على رجل حر اسمه جمال عبد الناصر، يداوي الجراح(!).

لم تحرز هذه الأغنية القصيرة شهرة عريضة، كما أغنيات «وطنية» احتفت بفلسطين أخرى، أداها عبد الحليم وأم كلثوم وغيرهما إبان ذلك الزمن، ربما لضعفٍ وسذاجة ظاهرين فيها، في كلماتها خصوصا، ولتشابه لحنها مع ألحان أخرى، غير أنه يبقى لافتا أن وردة الجزائرية ظلت تأتي عليها في أحاديث ومقابلات صحافية معها، وتتحدث عنها واحدة من بواكيرها وبداياتها، ربما تذكيراً بأن لها هي الأخرى مقطعاً فلسطينياً في مسارها الفني الطويل .. ولعل في التفاتة هذه المقالة إلى تلك الأغنية المنسية، ونحن في أجواء فلسطينية تماما في غضون الهبة الجارية في عموم فلسطين، والمقاومة الباسلة، والاعتداءات الإجرامية الإسرائيلية، ما ينطوي على تحية خاصة إلى وردة، رحمها الله، وقد متعتنا زمنا طويلا بأغنيات لا تُنسى.

عشرون عاماً وأنا أبحث...

ممدوح حمادة

أم كلثوم غنّتها «عشرون عاماً وأنا أبحث عن أرض وعن هوية». أما علي الحجّار فقد عدّل عدد السنوات، فقالها «خمسين عاماً... «. ثم غنّتها مي نصر لتضيف عشرة فتقول «ستين عاماً...». الآن يمكن أن نقول «سبعين عاماً». مع ذلك، بقدر ما تثير هذه الأرقام الخيبة تشير إلى الإصرار على تبنّي هذه القضية، ولعلّ قضية في العالم لم تشغل الرأي العام كما فعلت القضية الفلسطينية التي كانت محط تعاطفٍ من كلّ أنصار الحق والعدالة على سطح الأرض، وتشابكت خيوطها إلى درجة أنّه لم يبقَ شعبٌ لم يساهم على مذبحها وإن بقطرة من الدم. وبعض القوى والمنظمات الأجنبية انخرطت فيها في شكل جماعات، كما فعل يابانيون وألمان وآخرون، إضافة إلى الشعوب العربية التي لم تلهب مشاعرها قضية كالقضية الفلسطينية. لكنّ تراكم الخيبات شكّل مادة دسمة لبعض الجهات والقوى، لتؤسس رأياً عاماً سلبياً من القضية الفلسطينية. ومن أجل ذلك، استخدمت تفاصيل كثيرة، ربما أهمها نقل المسؤولية عن ظهر الفساد الذي ينخر النخاع الشوكي لمعظم الأنظمة العربية إلى ظهر القضية الفلسطينية، باعتبار أنّ سبب بؤسنا - نحن الشعوب - هو تخصيص 75 في المائة من ميزانياتنا للجيوش التي أوكلت إليها مهمة تحرير فلسطين. وبالتالي، فإنّ تلك الميزانية تؤخذ من طعام هذه الشعوب ورفاهيتها، وهو كذلك فعلاً، لكن، هل القضية الفلسطينية هي التي تسرق هذه اللقمة من فم المواطن العربي؟

يؤكد التاريخ أنّ القضية الفلسطينية بريئة من هذا الافتراء جملة وتفصيلاً، فهذه الجيوش لم توكل إليها مهمة تحرير فلسطين يوماً، لأنّ دول المواجهة نفسها مستهدفة بالمشروع الصهيوني كفلسطين تماماً. بكلام آخر، هي إن اشتركت في معركة، فإنّ هذه المعركة تعتبر دفاعاً عن نفسها. وإذا تجاوزنا هذا التفصيل، لن نجد أنّ هذه الجيوش قد خاضت حرباً في فلسطين سوى حرب الإنقاذ (1948) التي أوكلت قيادتها سياسياً إلى الملك عبد الله، وعسكرياً إلى غلوب باشا، ضابط الاستخبارات البريطانية، الدولة التي أعطت وعد بلفور، فتصوّروا جدّية الموقف العربي من القضية الفلسطينية في هذه الحرب. الحرب الأخرى (يونيو/ حزيران 1967) خاضتها إسرائيل من طرف واحد تقريباً على أراضي الدول العربية المجاورة، ولم تحصل دفاعاً عن فلسطين. أما الثالثة (أكتوبر/ تشرين الأول 1973) فقد كانت من أجل استرداد الأرض التي احتلت في حزيران. وبالتالي، يمكن القول إنّه لا علاقة لفلسطين بها، وهذا يجعلنا نقول بثقة إنّ جيوشنا لم تحارب من أجل فلسطين.

لا بدّ من الإشارة إلى فشل الحركات الثورية التي تشكلت من أجل تحرير فلسطين، وبذلت دماء كثيرة. أضف إلى ذلك احتكار بعض القوى موضوع المقاومة، ومنع الآخرين عنها، واستغلال القضية بمآربها السياسية. ذلك كلّه تم الشغل عليه إعلامياً من جهات مختلفة، أدى فعلاً إلى إشاعة شعور بارد تجاه القضية الفلسطينية. كما أنّ مصائب الشعوب العربية الأخرى لعبت دوراً كبيراً في لفت الأنظار بعيداً عن القضية الفلسطينية، لكنّ أيّ مشكلة في الحياة لا تنتهي إلا بانتفاء أسبابها، والقضية الفلسطينية لم تنتفِ أسبابها لكي تنتهي. يتم قمعها ويتم إخمادها عنوة، لكنّ ذلك يزيد في أسباب تفاقمها. ولهذا ستظل تنفجر وتعود إلى واجهة التعاطف والاهتمام، وسيكون لها في النهاية انفجار كبير يتم فيه وضع النقاط على الحروف. ليس الموقف من القضية الفلسطينية قومياً ولا دينياً، إنّه قبل أيّ شيء موقف أخلاقي، حتى لو كانت فلسطين جزيرة في المحيط.

إيران تجمع أوراقها وتعيد تموضعها

سعد كيوان

يكثر الحديث، هذه الأيام، عن إعادة خلط الأوراق على الصعيدين الإقليمي والدولي، انطلاقا من المفاوضات غير المباشرة التي تجري حاليا في فيينا بين الولايات المتحدة وإيران بشأن الملف النووي برعاية الاتحاد الأوروبي، والحوار المفاجئ بين إيران والسعودية، على الرغم من المواجهة المستعرة في اليمن منذ ست سنوات، وكذلك الانفتاح السعودي والخليجي على النظام السوري، وأخيرا التهافت التركي المباغت نحو إعادة ترميم العلاقات مع مصر والسعودية. وتوحي سرعة هذه التطورات وكأن انقلابا حصل في موازين القوى، وفي حسابات المصالح على الصعيد الإقليمي، وتحديدا لدى إيران وتركيا اللتين كانتا تشكّلان مع إسرائيل القوى الإقليمية الثلاث التي تتجاذب الدور والنفوذ، وتُمسك بزمام المبادرة على حساب الدور العربي. هل إنها محاولات للتكيف مع ما يمكن أن ينتج عن مفاوضات فيينا، أم إنها محاولة استباقية للتحصّن وفرض وقائع جديدة على المفاوضين، وتحديدا على الولايات المتحدة التي لا يبدو أن إدارتها الجديدة قد بلورت بعد استراتيجية واضحة في سياستها الخارجية. ولأنها ما زالت تتلمس أي خطة للشرق الأوسط، وكيفية التعاطي مع نظام الملالي في إيران الذي أصبح يسيطر، أو أقله صاحب دور فاعل ومؤثر في عدد من دول المشرق العربي، وتقف حائرةً بين رغبتها في العودة إلى الاتفاق النووي مع بعض الشروط، وضرورة مراعاة مصالح حليفتها الأساسية إسرائيل التي ترفض إعادة إحياء الاتفاق، وتسعى إلى الالتفاف على إيران عبر التطبيع مع دول الخليج، وعبر الضغط عليها عسكريا، لإخراجها من سورية التي باتت ساحة بيد روسيا بوتين. وهذا أمر على الرئيس الأميركي، بايدن، أن يأخذه أيضا بعين الاعتبار، فيما تفكيره واهتمامه وغضبه منصبٌّ نحو بكين التي سجّلت اختراقا إقليميا بالاتفاق الذي وقعته مع طهران نفسها.

غير أن الالتفاف الحقيقي هو ما قامت به إيران من خلال الحوار المفاجئ الذي بادرت إلى إطلاقه مع السعودية، الحليف العربي الأول للولايات المتحدة، وعبر جارها العراق الذي يرأس حكومته مصطفى الكاظمي، الذي سجّل مجيئه إلى السلطة قبل سنة خرقا أميركيا مهما في مسار استتباع هذا البلد لوصاية الملالي. ولكن الكاظمي نجح بشكلٍ لافت وذكي في عبور حقل ألغام «الحشد الشعبي»، وفرض هامش واسع من استقلالية القرار والعودة بالعراق إلى محيطه العربي، ونحو الجار السعودي بالتحديد، والتحوّل إلى نقطة تقاطع بين طهران والرياض، ثم احتضان حوار صعب جعلته ممكنا ربما حاجة الطرفين، كل من منطلقاتٍ ولأسبابٍ مختلفة، للبحث عن تسوية ما في حربٍ اليمن التي استنزفت طاقات الشعب اليمني وقدرات الطرفين. السعودية متوجسة، على الأرجح، من سعي الإدارة الأميركية إلى إعادة تعويم الاتفاق النووي، غير آبهة، أو غير قادرة، على وضع تمدّد النفوذ الإيراني في المنطقة على طاولة المفاوضات، علما أن هذا المطلب الأهم الذي يقلق الدول العربية. في المقابل، تتعرّض إيران لضغط هائل من الخصوم والحلفاء على السواء، من أميركا وإسرائيل ومن روسيا أيضا، بالأخص في الساحة السورية التي يلتقي الجميع على ضرورة إخراجها منها. وهي تخشى، بالتالي، أن يتحوّل إلى ضغط ميداني من الأطراف الثلاثة. وهذه إسرائيل مستمرّة في غاراتها على مواقع عسكرية للنظام ولمواقع إيرانية ولمليشيا حزب الله من دمشق إلى اللاذقية، فيما التنافس على أشدّه بين طهران وموسكو للاستئثار بإدارة بشار الأسد الذي يريد بوتين استخدامه للعبور إلى الحل السياسي، طبقا لقرار مجلس الأمن 2254، ما من شأنه أن يعبد الطريق إلى إعادة إعمار سورية التي لا تقوى عليها سوى أوروبا ودول الخليج، ما يمكّن روسيا من تثبيت دورها ونفوذها في المنطقة، وليس الاستمرار في استنزاف الشعب السوري وتشريده ومقارعة إسرائيل وأميركا، وجعل سورية موطئ قدم لإيران على البحر المتوسط. إيران تبحث إذاً، أقله، عن تحييد السعودية ودول الخليج في هذه المواجهة التي يحاول الأسد أن يلعب دورا فيها، عبر إيهام رعاته في طهران أن الرياض تسعى إلى إعادة العلاقات الطبيعية مع دمشق. ولكن هذه المناورة تطرح سؤالا أساسيا حول ما إذا كان لدى الأسد ما يقدّمه إلى السعودية ودول الخليج كي تعود الحرارة إلى العلاقات الثنائية: فهل

> تحاول إيران استغلال استياء السعودية وبعض دول الخليج من البرودة التي يبديها الحليف الأميركي

هو مستعد أو راغب في الخروج من تحت العباءة الإيرانية، وكسر هيمنة طهران المباشرة على مفاصل السلطة وأجهزتها العسكرية، أو هل يملك القدرة أو المشروعية لإجراء مصالحة وطنية تمهد لإطلاق عملية الانتقال السياسي للسلطة، وإعادة النازحين إلى بلداتهم وقراهم على أساس بنود مؤتمر جنيف وقرارات الأمم المتحدة التي تعلن (وتكرّر) السعودية التمسّك بها، أو هل ما زالت لديه في لبنان أوراق يستطيع وضعها في يد العرب لمواجهة الهيمنة الإيرانية، علما أن لبنان أصبح ساحة للنفوذ الإيراني، والقرار فيه لحزب الله الذي أصبح نفوذه أقوى من نفوذ بشار داخل صفوف كبار الضباط والألوية العسكرية السورية. مراهناتٌ كثيرة جرت خلال السنوات الأخيرة على إخراج الأسد من تحت العباءة الإيرانية باءت كلها بالفشل. يكشف رئيس الحكومة السورية الأسبق رياض حجاب، أخيرا، في حوار مع «تلفزيون سوريا»، أن الأسد قال له إنه إذا خُيّر بين الإيرانيين والروس سيختار الإيرانيين. وربما هذا كان يصح على الأرجح قبل أواخر 2015، تاريخ التدخل العسكري الروسي، أما اليوم فإن الأسد كرة يتقاذفها الطرفان، ويحاول كل منهما الإمساك بها ولعبها في اللحظة المناسبة ليسجّل بها نقاطا على حليفه.

لذلك، خطت إيران أول خطوة باتجاه الشرق بتوقيعها على اتفاقية تعاون اقتصادي وتنموي لـ25 عاما، وقيمتها 400 مليار دولار، وتؤدي إلى تعميق نفوذ الصين في الشرق الأوسط، وتساهم، ولو جزئيا، في فك عزلة إيران بسبب العقوبات الأميركية المكثفة والخانقة. وهي الآن تحاول استغلال استياء السعودية وبعض دول الخليج من البرودة التي يبديها الحليف الأميركي، عبر مد جسور مباشرة معها لطمأنتها، معلنةً، خطوة أولى، موافقتها على وقف إطلاق النار في اليمن. ولكن بطبيعة الحال هذا مسار طويل على جدول أعماله أكثر من قضية وملف (اليمن وسورية ولبنان والإرهاب وغيرها...)، ويلزمه بالتالي كثير من الوقت، ومن رسائل حسن النية، وإعادة بناء الثقة. يقابله تجاوبٌ وتعاطٍ حذرٍ من السعودية التي تدرس خطواتها بتأنٍّ، إلا أن إيران تعتبر أنها وضعت القطار على السكّة، وتراهن ربما على مسألة حسن الجوار بين دول الخليج. غير أن الخطوة المفاجئة والأكثر إثارة ما قامت به تركيا التي بدت وكأنها تدخل في سباق مع إيران، إذ اندفعت بشكل مفاجئ نحو إعادة ترميم علاقتها مع مصر وبدون أي شروط، لا بل إنها وافقت على إغلاق قنوات تلفزيونية ووسائل إعلام تبث من أنقرة تابعة لمعارضين مصريين من «الإخوان المسلمين» وترحيل بعضهم. وزار وزير الخارجية التركي، جاووش أوغلو، الرياض الأسبوع الماضي، بعد فتور في العلاقة، سببه وصول «الإخوان» إلى السلطة في مصر عام 2013، ثم قطيعة منذ 2018 على أثر مقتل الصحافي السعودي جمال خاشقجي في إسطنبول. وهذا ما أدى إلى توتر علاقات أنقرة مع القوى الاقتصادية في العالم العربي التي أوقفت استثماراتها في تركيا، ما اضطر الحكومة التركية إلى إعادة النظر في سياستها مع الدول العربية، وإلى محاولة موازنتها بالعلاقات مع الولايات المتحدة وأوروبا عموما، الآخذة بالتدهور إثر توتر في العلاقات مع دول أعضاء في حلف شمال الأطلسي (الناتو) وتهديد بعض الدول الأوروبية بوضع عقوبات على أنقرة، والأهم تخوفها من نيات الإدارة الأميركية الجديدة التي تتوعدها بمعركة حول الحريات وحقوق الإنسان، ناهيك عن الحليف الروسي الذي يرسم لها حدود حركتها في شمال سورية. فهل هي محاولة من تركيا وإيران للتحصن في دفء الإقليم في مواجهة صقيع الغرب؟

(كاتب لبناني)

كاريكاتير

عماد حجاج

كي لا نقتل أنفسنا

عائشة بلحاج

غادر رجل منزله شمالي إيطاليا، بعد شجار مع زوجته، وقرّر أن يتمشّى حتى يهدأ، فظل يمشي إلى أن مرّ أسبوع كامل على خروجه من البيت، قاطعا مسافة 450 كيلومترا متواصلة. لم يتوقف الرجل الغاضب عن المشي، إلّا بعد أن ألقت الشرطة القبض عليه، في السّاعة الثانية بعد منتصف الليل. بعد أسبوع من مغادرة الزّوج المشّاء، البالغ من العمر 48 عاماً، منزله، وإبلاغ زوجته عن اختفائه، وفيما كان متجها نحو الجنوب مارّا بمدينة بولونيا، أوقفته دورية شرطة، على ساحل البحر الأدرياتيكي، في جولة تفقدية لنطاق حظر التجول. رأت الدورية رجلاً متعبا يسير بمفرده، خارقا حظر التجول، وأخذته إلى المخفر مُنهية مسيرته الطويلة التي لا نعرف إن كانت احتجاجا، أو ضياعا، أو بالفعل محاولة لتهدئة شياطين الغضب. في تحقيق الشّرطة، قال الرجل إنّه لم يدرك أنه قطع كل هذه المسافة في أسبوع، وأنه لم يفكر سوى في المشي لإراحة ذهنه.

ولم تضيّع وسائل الإعلام المحلية الفرصة لتطلق على الزوج المشّاء الهائم لقب «فورست غامب الإيطالي»، في إشارة إلى بطل فيلم «فورست غامب» الذي ركض طوال حياته. لم تكن نقطة التقاء فعل المشي المتواصل من دون تخطيط مسبق للرّجل مع «فورست غامب» الذي صار لصيقا بتوم هانكس الذي تقمّص دوره بشكل مذهل، هي وحدها ما أثار اهتمامي في هذه القصة، بل كان هذا الغضب الذي جعل الرّجل يمشي مئات الكيلومترات، ولا يهدأ، وهم حين ينصحوننا بالمشي، لعلاج التوتّر، يقصدون، بنصيحتهم هذه، مشي ساعة أو ساعتين. لكن هذا الرجل مشى أسبوعا ولم يهدأ. لا يُفيد المشي، إذن، إلّا لخدمة اللّياقة والصحة الجسدية. أما الرّوح والنفس إذا خربتا فلا مشي ولا قفز ولا عوم ولا تحليق يخفّف عنهما.

لعلّ الرجل مشى كل هذه المسافة لأنّه كان يهرب، وهذا أفضل تفسير. فحين تهرب، تواصلُ المشي فقط لأنّه كل ما تملك فعله، لمّا لا يكون هناك شيء خلفك تريد العودة إليه، ولا شيء أمامك تُسرع إليه. لتكون الطريق ملجأك وغايتك. على الرغم من أنّك تعرف أنه ليس كل سير هروبا، لكن لنقل إنّه قفز في المكان والزّمان لابتلاع العمر، على جرعات غير قاتلة.

يمكن النّظر إلى المشي وسيلة لمقاومة الانتحار، سواء باختيار الموت، وهو خيار تُظهر نسب الانتحار الكبيرة حضوره القوي. أو بالوقوع في اللّامبالاة القاتلة، كنهاية للحياة.

ذكرتني القصة بنصائح السّفر والابتعاد والمشي، وسائل تفكير وتحفيز للإبداع. مع أن الكاتب لا يحتاج السّفر ليكتب أفضل، بل ليعيش أفضل. قد يؤدي السّفر إلى إغناء نظرته إلى الأمور، وقد يُغني كتابته، لكنّه ليس شرطا لذلك، فهناك كتّاب كبار لا يغادرون بيوتهم، ويكتفون بالكتابة عن الأشياء التي تدور في محيطهم الصّغير.. وتكون أهمّ من التي يكتبها مسافر عتيد.

في حوار تلفزيوني، قال الشاعر والكاتب الفرنسي كريستيان بوبان إنّه لا يغادر محيط بيته، لأنّه لا يشعر بأنه يحتاج لذلك ليكتب. إنه شخص لا يحب السّفر، وكاتب بخيال قوي، يؤمن بمقولة ماريو فارغاس يوسا «إذا لم يكن في حياتك ما يستحق الكتابة عنه، فالخلل فيك لا فيها». لكن إذا كنت محبا للسفر، ليس عليك أن تكون غنيا ومتفرّغا لتسافر، وتضرب في الأرض. بل فقط أن يكون ظهرك واسعا، لتحمل ما عليك من عمل أو دراسة، وما معك من كتب وأغان، حيثما اشتهيت. أن تكون قادرا على حمل حياتك معك، بمشاقّها ومتعها، إلى مكان آخر.. هكذا تتمثّل الجانب المشرق لرواية ميلان كونديرا «الحياة في مكان آخر»، بأن تذهب حيث الحياة، إذا اختارت أن تكون الحياة بعيدة عنك، أو كنت ممن يحبّون عيش الحياة بكل وجوهها ومذاقاتها، ونبش أمكنتها السرّية الأعمق. لهذا أجزم بأنّني شخص مختلف، بفضل السفر الذي كسر كثيرًا من الأوهام والحواجز، والذي جعلني أخرج من فخ انتظار الأشياء أن تُحدث بكامل بهجتها؛ فرؤية أماكن جديدة، وأناس مختلفين والاندماج السريع معهم من أول خطوة فوق أرضهم، ذلك كله يجعلك تنتقل بيُسر في رحلة الحياة الطويلة.

> ليس عليك أن تكون غنياً ومتفرّغاً لتسافر، وتضرب في الأرض

ماذا عن السفر والكتابة؟ في حوار لذيذ مع فارغاس يوسا، يسأله محاوره: أنت تسافر كثيرا، وتكتب أيضاً في الوقت نفسه؟ يجيبه: «أكتب في كل مكان، حتى عند السفر، أحافظ على حيوية مشاريعي .. إذ يُمكن أن تكون أوقات الاستراحة والانقطاعات قاتلة. أنا بحاجة لهذا النشاط، وإلا سأقتل نفسي».

(كاتبة مغربية)

المأتم الانتخابي السوري

عبد الباسط سيدا

كثيرة هي الطرائف التي قيلت للتعليق على سياسات نظام حافظ الأسد وممارساته، وفي نقدها على المستويين الداخلي والإقليمي؛ وهذه ظاهرة عامة، شملت، وتشمل، جميع الأنظمة الدكتاتورية التي لا يمتلك فيها الناس حق التعبير الحر عن آرائهم، وأفكارهم المغايرة للتوجهات الرسمية للسلطة. ومن بين تلك الطرائف أن أحدهم توجّه مجبراً للإدلاء بصوته في واحدٍ من الاستفتاءات التي كانت تنظم «لتجديد البيعة للقائد الملهم»، ولكنه كان قد صمّم بينه وبين نفسه ألا يمنح صوته لصالح التدوير، فوضع الإشارة المطلوبة على الدائرة الرمادية ووضع الظرف في الصندوق؛ ثم خرج من المركز الانتخابي، ليتوجّه إلى منزله. وفي الطريق هاجمته الكوابيس: ماذا سيحصل لك إذا اكتشفوا أمرك؟ ما هو المصير الذي ينتظر أسرتك في هذه الحال؟ أي مستقبل ضمنته لأولادك بهذا التصرّف؟ ... إلى آخر هذه الكوابيس والهواجس السوداوية؛ لذلك قرّر فجأة العودة إلى المركز، وتوجه إلى رئيسه مباشرة: أرجو عدم المؤاخذة، لم أفهم المطلوب. فربما كنت قد وضعت الإشارة على الدائرة الخطأ. هل في مقدوري تصحيح الخطأ؟ فأجابه رئيس المركز بكل عجرفة، وسلطوية: لقد صحّحنا نحن الخطأ، ولكن إياك أن ترتكب مثل هذه الأخطاء القاتلة ثانية.

لقد أسّس حافظ الأسد نظاماً دكتاتورياً شمولياً، واعتمد في ذلك على الجيش والأجهزة الأمنية وحزب البعث. ولكن الحلقة الأكثر أهمية كانت تتمثّل في الأجهزة الأمنية القمعية التي كانت تراقب كل شاردة وواردة في الجيش على وجه التحديد، والمجتمع السوري بصورة عامة، فقد كانت تتدخل في كل شيء، بدءاً من قبول الطلاب في كليات الجيش والشرطة، والبتّ في طلبات المتقدّمين إلى الوظائف بكل مستوياتها. هذا إلى جانب تقديم الاقتراحات بخصوص أسماء قيادات الفرق والشُعب والفروع الحزبية؛ وحتى أسماء أعضاء القيادة القُطرية، وأسماء الوزراء ورئيس الوزراء، ووضع قوائم أسماء أعضاء مجلس الشعب.

وكانت عقيدة حافظ الأسد في الحكم تقوم على عدة مرتكزات، أهمها:

أولا، الاحتفاظ بواجهات الحكم، وعدم إجراء التغييرات فيها قدر الإمكان، وذلك لترسيخ مفهوم الاستقرار، وتكوين انطباع كاذب لدى تلك الواجهات، ولدى الناس في الوقت ذاته، بأن هؤلاء يمتلكون القدرة على اتخاذ القرارات؛ في حين أن الجميع كان على علم بأن كل القرارات، وعلى جميع المستوياتٌ، لا تصبح سارية المفعول، من دون الضوء الأخضر من حافظ الأسد نفسه.

ثانيا، الإصرار على تسويق القراءة السلطوية للأحداث والمواقف على مختلف المستويات، وتكرارها من دون كلل أو ملل عبر وسائل الإعلام، وفي الخطابات الرسمية، بغض النظر عن مدى مطابقتها الوقائع.

ثالثا، عدم إبداء المرونة أو الاستعداد للأخذ ببعض الإصلاحات بناء على مطالب الناس، ودعوات الإصلاح من القوى السياسية والمجتمعية، فهو كان يدرك أن النظام الشمولي يمهد الأرضية لانهياره بمجرّد أن سمح بتعديلاتٍ تتناقض مع طبيعته.

رابعا، اعتماد المظاهر الديمقراطية الشكلية في الحكم؛ والإيحاء بإشراك الأحزاب السياسية. وبالتناغم مع هذه التوجه، اعتمد نظام الإدارة المحلية. وسن التشريعات والقوانين الخاصة باختيار أعضاء مجالس البلدات والمدن والمحافظات. ولكن ذلك كله تحت إشراف وضبط صارمين من الأجهزة. كما أنه تمكّن من تدجين الأحزاب السياسية، الشيوعية منها والقومية العربية، بتدرجاتها المختلفة، وضمّها إلى «الجبهة الوطنية التقدّمية» التي شكلها بقيادة حزب البعث الذي حدّده قائداً للدولة والمجتمع، بموجب المادة الثامنة من دستوره، (دستور 1973) ليصبح هو «القائد الضرورة» الذي لا يستغنى عنه، باعتباره قائد الحزب القائد نفسه/ وقائد الجيش.

وكانت الاستفتاءات المتعاقبة التي جدّدت له باستمرار، بل كانت هناك أصوات تعلو وتطالب بضرورة «تجديد البيعة له إلى الأبد»، وهذا ما حصل في الواقع، لأنه ظل رئيساً مطلق الصلاحيات منذ انقلابه على رفاقه وأقرب المقرّبين إليه عام 1970، حتى يوم وفاته في صيف عام 2000. واللافت، الذي يدعو إلى التمعن، أن حافظ الأسد قد تمكن وهو في حياته من تحديد خليفته في النظام الجمهوري. وكان من الواضح أنه يعتمد في هذا المجال على واجهات حكمه التي ظلت تلازمه منذ بداياته، حتى وفاته، وهي الواجهات التي دينت بالفساد، ومارست التجاوزات، وأسهمت في إحباط فعاليات المجتمع المدني التي انطلقت بعد وصول بشار إلى الحكم، الذي وعد بالكثير في خطاب قسمه الشهير؛ ثم سرعان ما تبين أنه كان يلتزم سياسة «تمسكن حتى تتمكّن».

واستمر الابن على نهج أبيه، سواء من جهة تنظيم الاستفتاءات الصورية، ومن جهة الاستهتار بالسوريين، وسدّ الأبواب أمام أي عملية إصلاح، كان من شأنها التخفيف من الاحتقانات، والإسهام في حل مشكلات السوريين بالتدريج؛ ولكنه استخدم شعار الإصلاح نفسه لمجرد التعمية، والتضليل، حتى تمكّن من تثبيت نفسه، وأبعد الخصوم المنافسين، وكانت وسيلته في ذلك كله الأجهزة الأمنية، وامتداداتها في الجيش.

أما في انتخابات 2014 فيبدو أنه قد التزم بتوجيهات رعاته الروس والإيرانيين، وهم الخبراء في الانتخابات الشكلية، على الرغم من تعدّدية المرشّحين، فأتاح المجال لمرشّحين آخرين كان كل همهما إبداء دعمهما قيادة بشار الأسد. وها هي اليوم المسرحية ذاتها تتكرّر اليوم، وبصورة أكثر ابتذالاً. وربما يوحي المشهد العام بما هو لصالح النظام في هذه الانتخابات، فهو يسيطر على مناطق أوسع من البلاد مقارنة بانتخابات عام 2014.

والأمر الذي أثار الانتباه أكثر من غيره ما أعلنه الرئيس الأميركي، جو بايدن، بخصوص ما يمثله النظام من خطورة على الشعب السوري، وعلى المنطقة، وعلى المصالح الاستراتيجية الأميركية نفسها. والسؤال هنا: هل يعد هذا الموقف خطوة أولى واضحة في موقف الإدارة الأميركية من النظام، ستتبعها خطواتٌ أخرى؟ أم أنها تأتي في سياق تبادل الرسائل مع الإيراني، ضمن المفاوضات الجارية حول الموضوع النووي؟

> استمر الابن على نهج أبيه، سواء من جهة تنظيم الاستفتاءات الصورية، ومن جهة الاستهتار بالسوريين

ولكن بالموازاة مع الموقف الغربي الملتزم بعدم التطبيع مع النظام الأسدي؛ يلاحظ وجود حركة إقليمية نشطة بين مختلف الأطراف. منها التواصل الأمني - السياسي التركي المصري، والتركي السعودي، والمباحثات الأمنية السعودية الإيرانية من جهة، والسعودية السورية من جهة ثانية، هذا إلى جانب تسريبات عن لقاءات بين مسؤولين إسرائيليين وممثلين عن النظام برعاية روسية. ولكن كل هذه التحرّكات تظل في خانة ترتيب الأوراق، وجمع النقاط، انتظاراً لتبلور معالم الموقف الأميركي الذي سيؤثر، بطبيعة الحال، في الموقف الأوروبي، ولن يكون بعيداً عن التفاهمات مع الجانب الإسرائيلي، خصوصا بعد تفجر الأوضاع في الأراضي الفلسطينية المحتلة.

وفي انتظار هذا التبلور، لا بد أن يسعى السوريون من أجل إعداد البديل المقنع للسوريين أولاً، ومن ثم للقوى الدولية والإقليمية. بديل يتوجه إلى جميع السوريين من دون أي استثناء؛ وبخطاب وطني جامع، يقطع بصورة جازمة، نهائية، مع خطاب الكراهية والأحقاد و«الثارات»، سواء المذهبية - الطائفية منها أم القومية. خطاب يطمئن جميع السوريين، ويركز على القواسم المشتركة؛ ويشدّد على ضرورة احترام الخصوصيات والحقوق، وعلى الدولة المدنية الديمقراطية التعدّدية المحايدة دينياً وقومياً وأيديولوجيا. وفي مقدمة المهام التي تنتظر هذا البديل مهمة ترميم النسيج المجتمعي الوطني السوري الذي فتك به النظام ورعاته. وكذلك مهمة تأكيد دور سورية المفتاحي على صعيد التواصل والتفاهم بين مختلف القوى الإقليمية والدولية؛ والتعاون معها من أجل تحقيق الأمن والاستقرار في المنطقة، وتوفير المقدّمات الفعلية لنهوض تنموي يوفر فرص التعليم والعمل للشباب، ويضمن مستقبلاً واعداً لأجيالنا المقبلة.

(كاتب وسياسي سوري)

إسرائيل تخسر معركة «كيّ الوعي»

عيسى الشعيبي

مع أن المعركة على الأرض والوعي والرواية والصورة، وغيرها من مفردات الصراع التاريخي، بدأت عقب النكبة عام 1948، غير أن مصطلح «كيّ الوعي» لم يجرِ استخدامه بكثافة إلا في خضم الانتفاضة الثانية عام 2000، حين دفع به وزير الحرب الإسرائيلي، آنذاك، إيهود باراك، إلى مقدمة السجال بشأن الغايات النهائية لقوات الاحتلال، من إفراطها في القمع والترويع والقتل، للنشطاء والسكان، بمن فيهم الأطفال والنساء، بقوله إن إسرائيل بصدد كيّ الوعي الفلسطيني بالنار، وتكريس الشعور بالعجز، ومن ثمّة الاستسلام.

في خضم المعركة الجارية منذ مطلع شهر رمضان، من باب العامود إلى المسجد الأقصى إلى الشيخ جرّاح، والمتفاعلة بأشكال متنوعة، في كل فلسطين، من غزة إلى الجليل، تستدعي منا، هذه المرّة، سحب مصطلح كيّ الوعي من الأدراج، وإعادة طرحه للنقاش، بعد أن بدأت عودة الوعي الفلسطيني إلى كامل عافيته تعبّر عن نفسها بأدواتٍ حسّية ملموسة، وباقتدارٍ لا سابق له، وانتقاله من الدفاع إلى الهجوم، بعد ضرب تل أبيب بمئات الصواريخ يومياً، وإغلاق مطار اللد، فضلاً عن اشتعال مظاهر الاحتجاج في الضفة الغربية وفي الشتات.

على أن أبلغ هذه المظاهر، وأعمقها دلالة، تجلى بصورة مدهشة، وبلغ ذروة السنام، حين انخرط شباب عرب 48 وشاباتهم في مشهد الكفاح الفلسطيني العام، على نحو أشد حضوراً، وأوسع تفاعلاً، مما كان عليه الأمر في أي مناسبة مماثلة، حيث دخل الأحفاد على خط النضال المشترك بزخمٍ لافت، وبخطابٍ تجاوز السقوف المعهودة، وهو ما يمكن تدوينه، بثقة، طفرةً في الوعي الوطني الذي اعتقد كثيرون بيننا أنه قد امّحى، أو تبلد على الأقل، جرّاء ما تراكم في الذاكرة من عوامل قهر ويأس، وما تراءى في المحيط العربي من مظاهر اهتراء.

ولعل أكثر من أدركوا مغزى هذا التحوّل في طفرة الوعي بذات الوطنية الفلسطينية، وتخوّفوا من عقابيلها النوعية المحتملة في المدى المنظور، كانوا هم أرباب الدولة العنصرية، ممن قارفوا مختلف أنواع الظلم والتمييز والتغييب ضد العرب الفلسطينيين، حيث اعتبر نتنياهو، مثلاً، ما يجري في القرى والبلدات والمدن العربية المختلطة، من تماثل مع أبناء جلدتهم في القدس وغزة والضفة الغربية، أشد خطورةً مما يحدث على الجبهة الغزّية من مواجهاتٍ ناريةٍ، بندّيةٍ أدهشت الأصدقاء، والمشفقين على ناس القطاع المحاصر، وأذهلت بكفاءتها الخصوم والأعداء.

إزاء ذلك، وعلى خلفية ما يفيض به المشهد الفلسطيني، في هذه الأيام المجيدة، من مظاهر اقتدار وحيوية، واتّحاد عز نظيره، شمل الجليل والمثلث والنقب، يمكن القول، بيقين بالغ، إن مجرى المعركة على الرواية قد تبدّل بصورة نوعية، وإن الوعي بالهوية والوطنية الفلسطينية قد نهض من سباته الطويل، وربح المعركة مبكراً، وفوق ذلك قلب السحر على الساحر.

عندما ينقشع غبار العدوان الهمجي على الشعب الفلسطيني، سوف يتساءل كثيرون في إسرائيل، بينهم وبين أنفسهم، سرّاً وعلانية، عما إذا كان العيش فيها، بعد انكشاف ضعفها الاستراتيجي هذا، يستحق هذه المجازفة التي لا نهاية لها، سيما لمن لديهم جنسياتٌ مزدوجة، وبالتالي لديهم خيار الانتقال إلى أوروبا والولايات المتحدة، طالما أن بلاد العسل واللبن الموهومة لم تعد الملاذ المنشود، ولا الواحة الآمنة المستقرّة في صحراء الشرق الأوسط.

قد يكون هذا الاستخلاص مبكّراً بعض الشيء، وقد يكون متعجّلاً، والحرب لم تضع أوزارها بعد، إلا أن السجال المقدّر له أن ينشب عما قريب، داخل مختلف الأوساط والمستويات السياسية والإعلامية الإسرائيلية، سوف يدفع بالأسئلة المكبوتة الآن إلى السطح دفعة واحدة. وفي الخلفية صور تل أبيب تحت القصف، ومطار اللد مغلقا، والملاجئ تُفتح ثم تغلق من دون انتظام، وغيرها كثير من المشاهد الصادمة، لعقلية تحسب أن لديها كل عوامل التفوق، قبل أن يتم كيّ وعيها أخيراً.

ليسوا أبناء الثورات!

محمد طلبة رضوان

تعرّضت الثورات العربية إلى هزائم وانكسارات، لكنّها لم تُهزم هزيمةً نهائية، ولم تشهد نهاية تاريخها بعد. ما زالت حاضرة، بطموحاتها، مؤثرة بوعيها، مقلقة بعودة مرتقبة، ومحتملة، كما تشير إلى ذلك خطابات الأنظمة نفسها. كسبنا وخسرنا، كسبنا تجربة أثبتت «إمكانية» إزاحة ديكتاتوريات راسخة، بعدما كان ذلك مستحيلاً. قبل يوم واحد من اشتعال الثورة، كسبنا جيلاً جديداً، نشطاً، مسيساً، يقرأ، ويتابع، ويشارك، قدر ظرفه وإمكاناته، ويتطلع إلى غد مختلف، ويدفع خصومه، رغماً عنهم، إلى إصلاحاتٍ خدميةٍ وتنموية، لإرضاء السواد الأعظم من الناس، واختطافهم من طموحات أبنائهم. كسبنا جدلاً واسعاً لم يتوقف حول الحريات، السياسية والاجتماعية، ومدى ملاءمتها لمجتمعاتنا ومعتقداتنا، وتاريخنا وواقعنا، وهو الجدل الذي يبدو، للوهلة الأولى، محسوماً لصالح الماضي، إلاّ أنّ وجوده بهذه القوة والاستمرارية يبشّر بمستقبل. كسبنا وعياً نقدياً، ما زال في طور التشكّل، لا يسمح بالتسليم لأيّ سلطة من دون مساءلة، ودفعنا ثمن ذلك كله، أضعافاً مضاعفة؛ دماً، واعتقالات، واغترابات، ومرارات؛ دينية وسياسية واجتماعية، وعذابات روحية ونفسية لا تنتهي، وهو ما يجعل من حراسة المكاسب القليلة أمراً واجباً، نظراً إلى تكلفتها العالية.

عادت القضية الفلسطينية إلى واجهة الاهتمام العربي، بعدما كاد الربيع العربي يحتل مكانها ومكانتها. عادت البوصلة، والقضية المركز، وعادت معها طموحات التحرّر، وخطابات المقارنة بين الاحتلال الصهيوني وحلفائه من المحتلين المحليين، الأمر الذي لا يخلو من تثوير. عادت جدالات القضية، أكثر زخماً من ذي قبل، وهو مكتسبٌ آخر من مكتسبات ما بعد الثورات... وإخفاقاتها.

بعضنا طرح خطاباتٍ مغايرة، ناقدة للمقاومة، ليس لجهة المبدأ، طبعاً، إنّما من حيث السبل والطرق والسياسات ومدى فاعليتها وجدواها، وبعضنا ناقش هذه الخطابات واشتبك معها، وبعض خصومنا ركب عليها واستغلّها وحاول تمرير انحيازاته للعدو من خلالها، وبعضنا زايد، وبعضنا رفض. وبعضنا وصم أصحاب هذه القراءات النقدية، وساوى بينهم وبين الصهاينة العرب واعتبرهم خونة وعملاء، وطالب بتجريدهم من شرف الانتساب للقضية، ومارس اغتيالات معنوية عليهم، واستهدف شخوصهم وولاءاتهم الدينية والسياسية والأخلاقية، واستدعى خطابات تعبوية وإقصائية وفاشية تنتمي إلى مرحلة ما قبل الثورات. وجدنا من شباب الربيع العربي من يتورّط في خطابات تشبه خطابات دولة يوليو في مصر، وبعث الأسد في سورية، وبعث صدام في العراق، خطابات الصوت الواحد والرأي الواحد، خطابات تجريم الاختلاف، واعتباره خيانة، خطابات «لا صوت يعلو...» تحت دعاوى الغيرة على الدين والوطن والقضية والمقاومة والشهداء! هنا تغيب الثورة بوعيها، بطموحها، بتجربتها، بثمنها، ويحضر خصومها، بسياساتهم وخطاباتهم ومقرّراتهم، وآلتهم القمعية، وما أودعوه فينا، قسراً، ولم نستطع تجاوزه، بالكلية هنا، مزيداً من المرارات والجهالات والعداوات والنزاعات، المجانية، ومن ثم الفشل المؤكد.

نحتاج، هنا، أن نقول، بوضوح، إنّ الأصوات الحماسية، غير المسيسة، أخطر على القضية من خصومها، وإنّ الفصل، المتوهم والمتعسّف، بين الثوري والسياسي، أخطر على أصحابه من الاحتلالين، الوافد والموروث. نحتاج أن نقول، بشجاعة، إنّ تغيير الواقع يبدأ من فهمه، ممكناته وإكراهاته، وهو ما يفتقده أغلب «أبناء الثورات العربية». في السياسة «الثابت» الوحيد هو «المتغيرات»، ولم تنتصر الأنظمة الاستبدادية لأنّها الأقوى، بل لأنّها الأكثر وعياً. مهمٌّ أن نعترف، والأهم أن نتعلّم.

الاحتلال وأثمان نسخته الجديدة

أسامة عثمان

تشهد دولة الاحتلال تحوُّلاتٍ إيديولوجية سياسية واجتماعية لافتة، متّجهة نحو مزيد من التطرُّف الديني. تمثَّل ذلك، أخيرًا، في وصول أحزاب دينية عنصرية صريحة إلى الكنيست، ليسَ هذا فقط، بل إلى تحالُفها مع رئيس حكومة الاحتلال، زعيم حزب الليكود، بنيامين نتنياهو، الذي ليس بعيدًا عنهم، في العمق؛ في رؤاها الإيديولوجية، السياسية التي أفصح عن بعضها في كتابه «مكان تحت الشمس» (1993) حين أعاد بلورة نظريته العنصرية إزاء العرب بالمجمل، باعتبارهم أمة لا نفع منها، ولا يمكن أن تستقيم في نهج الحضارة، إلا من خلال سياسات القوّة، فتقارُب نتنياهو مع الأحزاب العنصرية، ليس على المستوى السطحي، في احتياجه إليهم لأغراض سياسية وسلطوية، فقط.

هذه الجماعات، مثل منظمة لاهافا التي سبق للمخابرات الإسرائيلية العامَّة (الشاباك) أن أكَّدت وصفها لها بأنها منظمة خطيرة، تتبنّى أفكار حركة كاخ العنصرية والمحظورة، التي هدفت إلى تهجير فلسطيني الداخل إلى الدول العربية، واليوم تتبنّى «لاهافا» علنًا قتْلَ العرب؛ لمجرَّد كونهم عربًا، وتعمل على طردهم، كما تتبنّى استهداف المسجد الأقصى؛ بالهدم، وإقامة الهيكل مكانه، مثل هذه الأهداف: المسجد الأقصى، قتْل الفلسطينيين؛ السكّان الأصليين، وطردهم، أو تهجيرهم، (كما في حي الشيخ جرّاح) وهدم المسجد الأقصى، مُحرِّكاتٌ لا يمكن أن تتوقَّف عن إثارة مخاوف الفلسطينيين، على اختلاف توجُّهاتهم السياسية، وحتى فيما يتعلق بالبُعْد العنصري الإجرامي، لا يمكنها أن تُبقِي حتى أقرب المتماهين مع دولة الاحتلال، ومن يؤمنون بفُرَص التعايُش معها، خارج المواجهة، هذه الاستهدافات الدموية لغير اليهود في فلسطين تعيد تشكيل وعي العرب وهُوِيَّتهم المُوحَّدة، بعد أن جهدت إسرائيل، منذ قيامها، على تشتيتها، وَفْق تعريفات أقلويّة طائفية، وعلى أسس متباينة. مرَّة على أسس دينية، ومرَّة على أسس عرقية، ومناطقيّة. أما الآن، فجميع العرب محكومون بمواجهةٍ وجودية؛ حياة أو موت، بالمعنى الحقيقي، لا المجازي. وهنا الخطورة البالغة، الهادمة كلَّ ما تمّ بناؤه من تقاربات، وكل ما تمّ تفعيله من آليّات الاحتواء، والتهشيم للهوية الفلسطينية، في الداخل، (ولو لم تكن ناجعة على نطاق واسع) عبر عقود.

هذه الـ «إسرائيل» التي تسمح، بعد أن كانت تحظر، تمثيل مثل هذا الفكر في الكنيست، ليست قادرة على الاستمرار في الرؤى والآليات السابقة الهادفة إلى التعايُش في الداخل، من أراضي فلسطين المحتلة عام 48، أو الهادفة إلى الاندماج في المنطقة العربية والإسلامية، فالمسجد الأقصى ثالث المساجد قدسيَّةً لدى المسلمين في العالم، وقتل الفلسطينيين لمجرَّد أنهم عرب، أو غير يهود، يُشعِران كلَّ مسلم وعربي أنه الآخر مستهدَف، ومُعادَى، من هذه الدولة التي باتت صورتها المَيَّالة بوضوح نحو قيم انعزالية وعنصرية، في العالم أجمع، محلّ نظر، وتشكيل جديد.

دولة الاحتلال، بصورتها الجديدة التي تتشكَّل، ليست قادرة على الانخراط في شرق أوسط جديد، بشّر به، شيمون بيريز، الزعيم التاريخي في حزب العمل، في كتابه «الشرق الأوسط الجديد» (1996) .. الذي لا يختلف مع معسكر اليمين الصهيوني في تقديم مصلحة إسرائيل، واستبقاء هيمنتها، ولكن في أساليب تحقيق ذلك، وفي وسائل فرض هيمنتها على المنطقة بأكلمها؛ بالسِّلْم والدبلوماسية والاقتصاد.

هذه النظرة الواضحة العِداء التي باتت تتغلَّب على قادة الاحتلال لا تتماشى، في العمق، مع فكرة التطبيع؛ إنها تضربها في أركانها، وتشلّ قدراتها، وتُهيل المزيد من التراب عليها، فنتنياهو استخدم التطبيع من أجل تمرير أهدافه ورؤيته الاستيطانية، والتهويدية، والأمن وَفْق مفهومه له، كما الاستيطان والتهويد، يتقدَّم على فتح الآفاق لدولة الاحتلال في المنطقة العربية والإسلامية، فشعاره «السلام مقابل السلام»، نقضًا لشعار «الأرض مقابل السلام»، ففي الداخل، عملت إسرائيل، عقودا، على تحييد الفلسطينيين عن الصراع، وحاولت إرباكهم، وإرباك خطابهم بين «الولاء للدولة»

> استخدم نتنياهو التطبيع من أجل تمرير أهدافه ورؤيته الاستيطانية، والتهويدية، والأمن وفق مفهومه له

والانتصار لشعبهم المحتل في الضفة الغربية والقدس وقطاع غزة، ولكنها الآن تناصر غُلاة المستوطنين المتطرِّفين في مساعيهم إلى استهداف المسجد الأقصى، الذي يرتبطون به، كما أيُّ مسلم، وحتى عربي، في العالم، وفي هذا مساسٌ بهُويتهم التي لم تنجح دولة الاحتلال في محوها، في وقتٍ لا تضع حدًّا لمن يستهدفون أرواحهم وممتلكاتهم، هذا إذا لم توفر للقتلة أشكالًا من الحماية والتغطية. صحيحٌ أن فلسطينيي الداخل لم يكونوا في منأى عن أشكال العنصرية، وعن سياسات الاقتلاع والتهجير الجزئي، كما فيما تسمَّى القرى غير المعترف، وغيرها، تحت ذريعة «قانون التخطيط والبناء»، ولكن الوتيرة العالية أخيرا لم يكن في الوسع التغاضي عنها، والتعايش معها. وتؤكّد مواقف الاحتلال، أخيرا، من حي الشيخ جرّاح، ومن السماح برفع وتيرة الاستهداف للمسجد الأقصى، فضلًا عن التواني الحكومي الاحتلالي عن حماية المدنيِّين العرب، فيما تسمَّى المدن المختلطة، ما خلص إليه وبرهن عليه المؤرِّخ اليهودي إيلان بابه في كتابه «التطهير العرقي في فلسطين» (2006) أن «الترانسفير»، وهذا تعبير ملطَّف عن التطهير العرقي، كان منذ البداية جزءًا من استراتيجيا رُسِمت بعناية ودقَّة، وأنه يكمن في أساس الصراع المستمر في الشرق الأوسط». يدرك قادة الاحتلال خطورة هذه الحالة العدائية المكشوفة، بين اليهود والعرب الفلسطينيين، وهم يحاولون احتواءها، إذ لو قُدِّر لها الاستمرار والتوسُّع، فإنها لن تضرّ بصورة إسرائيل في العالم، وحسب، بل ستعمل على نقض الآليَّات المعتمَدة، للتعامُل مع هذا الكم الديمغرافي المتداخل، والبالغ قرابة المليونين، بنسبةٍ تزيد عن 21% من السكّان. وهم يشغلون، بوصفهم الفردي، مواقع ليست هامشيةً في قطاعات مهمَّة وحيوية يصعب على دولة الاحتلال سلخهم منها.

(كاتب فلسطيني)

ألا تكفي فلسطين لوحدة الموقف الفكري؟

مهنا الحبيل

من الرسائل الإيجابية المهمة لجولة الكفاح الفلسطيني الحالية، وهذه الهبّة المشتركة لمواجهة الخطة الصهيونية المركزية، لتفريغ القدس من محيطها الاجتماعي ونزع قوى الرباط الشعبي، والتي شملت فلسطين 48، وباتت غزة تحت قصف العدو لأجلها بعد دخول المقاومة، هذه الروح العربية العائدة، نحو استشعار عمق القضية الفلسطينية، ليس في قلوبنا ومهجنا وضميرنا العربي والإسلامي وحسب، ولكن لكونه بالفعل ترمومتر المستقبل العربي. المستقبل الذي تُعاد تصفية حقوق إنسانه وسلب كرامته، في ثنائية المستبد المتواطئ مع الحركة الصهيونية، أو في رهنٍ جديد لحسابات الغرب الإمبريالي. وقد كان هذا الطرح يُحتج به من أنظمة البغي والإرهاب الثورية المتعددة، التي صاغت خطاباً مضللاً للشعوب، باسم القومية العربية والقضية المركزية، فضُيّعت القضية وسرقت حرية الشعوب وكرامتها وخبزها باسمهم.

غير أن الميثاق الفكري الجديد للعلاقة بين فلسطين وعمقها العربي هي مساحة الحرية، وحيث تتقدّم لهم آمال النهضة، فقد كان مشهوداً للجميع واقع الكيان الصهيوني ومخاوفه وارتجافه، إبّان حركة الربيع العربي، وقد تنفّس الصُعداء بعد الالتفاف على آمال الربيع ونقضه عبر حروب دمويةٍ عسكرية، سعت فيها أطراف داخلية وخارجية، لنقض الاستقرار العربي، بأسوأ مما كان عليه. والغرض معاقبة التفكير الحر في الوطن العربي، وتأديب الشباب الذين استشهد بعضهم وسجن آخرون، وهُجّرت شعوب وصُبت مآس عليهم، لا لشيء إلا لأنهم فكّروا بروح الإنسان الحر الذي يستحق وطناً أفضل، فالتقت الصهيونية مجدّداً مع الثورة المضادّة، لأنها تدرك أن حرية الفرد في أي قطر عربي تعني أن مساحة التعبير والضغط والتأثير تزداد لصالح فلسطين، وكما تَصبّ في صالح وطنه القُطري فهي تسند شقيقه في الأرض المحتلة، حيث احتلال يتقاطع مع احتلال الفرد وكرامة الذات التي تهيمن على أرضنا العربية. فلو كانت دمشق اليوم تحكم من إرادة ديمقراطية، لتحول الجولان إلى جبهة ضد العدو، ليس بالضرورة في اشتباكٍ حربي، ولكن في فوج من الدعم تُسابق به دمشق حلب وحماة. ومصداق هذا الأمر اليوم نراه في وحدة المفهوم الثوري وهتاف المقدسيين لثورة سورية الذي عاد ليجمع آمال الحرية بين القدس ودمشق. ولو كان للعراق بعد الاحتلال أي مساحة للمشاركة المدنية الحرة التي تجمع شباب العراق العربي من الطائفتين، وكان لحراكهم حضوره في برلمان منتخب حقيقي، لبرز صوت العراق الحر، لا صوت المحتل الإيراني، ولكان العراق أيضاً جبهة مختلفة تدعم فلسطين. أما مصر التي يخشى الصهاينة كل فارق لصالح حرية شعبها، ولو كان مراغمة ثقافية مع النظام كما كان في عهد حسني مبارك الذي اضطر للرضوخ لمساحة تعبير ورأي، فإن أفضل سورٍ لصالح المحتل هي هذه الطغمة القمعية التي تقتل الشعب المصري بفسادها وبقضائها، وتحاصر غزة وتقتل شعب سيناء، وهي بذاتها أكبر مصدر للإرهاب المضاد، فكيف لو كان الرئيس منتخبا، أكان الشهيد محمد مرسي، أو انتهت جولته وانتخب غيره، فما هو حال مصر تحت رئيس منتخب في إرادة حرّة أمام مشروع تهويد القدس، أكان للصهاينة أن يتوغلوا في إرهاب الأقصى؟

إنها اليوم فريضة مراجعة مهمة للتيارات الفكرية العربية التي اتحدت كوادرها المخلصة، واصطفت مع المقدسيين ومع النضال الفلسطيني، واستشعرت أن معركة الحرية والنهضة العربية متحدة مع معركة فلسطين، فَسحقُ الأخيرة لصالح الصهاينة ومرجعيتهم الإمبريالية، يعني تعزيز السجن القمعي الأخير على العرب، والتدخل لقطع كل متنفسٍ لهذه الشعوب، وتحويل مصادر

> لتتفق التيارات المختلفة على دعم صمود ما تبقى من آمال الربيع العربي، وإخراج بلدان المواجهات من حالة الحروب

الدخل العربي، إلى موسم كبير يطوف عليه المشروع الصهيوني ليحدد سوقه. أليس هذا بالضبط ما كان خلاصة مشروع ترامب ونتنياهو وحلفائهم العرب؟ كل ما في الأمر أن تلك الفرصة المتاحة أعيقت بين فشل ترامب ومواجهة اليمين الداخلية في أميركا، وعجز المحور العربي المؤيد له، عن إكمال المهمة، والتي كانت هبّة القدس أخيرا أحد أهم معالم عجز هذا المشروع الضخم الذي لم ينته. ولذلك، حوارنا العربي المعطل، كتيارات فكرية وشخصيات ثقافية مؤمنة بمستقبل الصف العربي، لا صراع أيدولوجيات حزبية ونخبوية، هو العودة إلى بناء البيت الفكري الجامع لهذا المستقبل، البيت الذي يجمع العرب، ويوحّد رؤيتهم للنهضة وقرار الاستقلال الذي سيكون أكبر عون لفلسطين. وأهم مشروع للبناء الفكري الذي تحتاجه الشعوب العائدة إلى آمال الربيع العربي، بعد أن أنهكها الفساد والاستبداد، هو معركة اليوم الثقافية المعرفية التي تؤسس لوعي سياسي دقيق حذر، من أي عاطفة أو صخب هائج باسم الثورة، يخترقها حلفاء الصهاينة، فيسقطون الثورات أو حركات الإصلاح من الداخل، فيعود العربي إلى محاولة استعادة الدولة قبل حلم النهضة.

يحتاج ذلك إلى توافق يصنع حلفاً فكريا عربياً، من التيارات العلمانية والإسلامية والعروبية ذات النظرة المختلفة، تتفق على دعم صمود ما تبقى من آمال الربيع العربي، وإخراج بلدان المواجهات من حالة الحروب، والتحوّل إلى الكفاح السياسي والجهاد المدني، وهو الجهاد الأسلم اليوم لمعركة تحرير قرار الإرادة العربية.

(كاتب عربي في كندا)

هل سيخفّض التوتر وتبرّد أزمات الشرق الأوسط؟

عمر كوش

تشهد منطقة الشرق الأوسط، في أيامنا هذه، تحرّكات سياسية مكثفة ومتسارعة بين عدد من دول المنطقة، تجسدت في زيارات واتصالات علنية وسرية قام بها مسؤولون كبار فيها، وتهدف إلى تهدئة التوترات وتبريد الأزمات، بما قد يفضي إلى ترميم الخلافات بينها وإعادة تموضعها الإقليمي، على خلفية التطورات الدولية التي حملها وصول الرئيس جو بايدن إلى البيت الأبيض، وبدء المفاوضات النووية بين إيران وكلّ من الولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وبريطانيا في فيينا.

وتعود بدايات التحركات السياسية الرسمية بين دول المنطقة إلى المصالحة الخليجية، التي دشنتها «قمة العلا» في الخامس من يناير/ كانون الثاني الماضي، على وقع المتغيرات الدولية والإقليمية التي ساهمت في التوصل إليها، خصوصاً بعد فوز جو بايدن بالانتخابات الرئاسية الأميركية، وما استتبعه من سعي دول المنطقة إلى إعادة اصطفافاتها الجيوسياسية في إطار حاجتها إلى بلورة خطط واستراتيجيات جديدة للتعامل مع المستجدات. ثم توالت بعد المصالحة خطوات تطبيع للعلاقات بين كلّ من قطر والسعودية ومصر والإمارات.

ولم يتوقف الأمر عند المصالحة الخليجية، بل امتد إلى لقاءات واتصالات أمنية وسياسية بين مسؤولين أتراك ومصريين، تكللت بعقد مباحثات استكشافية بينهما في القاهرة، وبتوقف الحملات الإعلامية العدائية بينهما، مع توقعات باقتراب التفاهم على ترسيم الحدود البحرية، وربما استئناف قريب للعلاقات الدبلوماسية بينهما، خصوصاً بعد التوافق بينهما على دعم مخرجات الحوار السياسي في ليبيا. وبالتزامن، جرت أيضاً اتصالات ما بين تركيا والعربية السعودية، أثمرت عن زيارة وزير الخارجية التركي، مولود جاووش أوغلو، الرياض في 11 مايو/ أيار الجاري، ولقائه نظيره السعودي فيصل بن فرحان، وأعلنت إنهاء قطيعة سياسية بدأت منذ سنوات بين البلدين، إذ يأمل الأتراك في أن تُحدث الزيارة تحولاً حقيقياً في اتجاه تطبيع العلاقات بينهما، خصوصاً أنّها تأتي في سياق تغييرات في الخطاب السياسي التركي، الذي بات يميل إلى انتهاج لغة ناعمة باتجاه التهدئة والحوار في ملفات إقليمية ودولية عدة، ودعوات إلى فتح صفحة جديدة مع الولايات المتحدة وأوروبا، وإلى حلّ الخلافات مع السعودية ومصر.

وإن كان لافتاً الكشف عن جولات مفاوضات سرّية بين إيران والسعودية عقدت في بغداد، إلاّ أنّها لا تخرج عن السياق التصالحي الهادف إلى تخفيض التوترات وتبريد الأزمات بين دول المنطقة، خصوصاً أنّ لدى ساسة البلدين دوافع قوية تحثهم باتجاه التهدئة وتخفيض التوتر بينهما في المرحلة الراهنة، أهمها إنهاء الحرب في اليمن، الأمر الذي عبّر عنه ولي العهد السعودي، محمد بن سلمان، وأرجعه إلى أنّ بلاده «تطمح إلى علاقات إيجابية مع إيران، رغم الخلافات الكبيرة معها». في المقابل، اعتبرت طهران أنّ «المفاوضات الإيرانية السعودية مستمرة حتى التوصل إلى نتائج» وأنّ «هناك بوادر إيجابية لحلّ الخلافات بين البلدين».

قد لا تسفر التحركات السياسية في المنطقة عن موجات من التحولات والانقلابات الكبرى في العلاقات السياسية بين أنظمة دول المنطقة التي كانت تتخندق في محورين متعارضين، كونها تتسم بالطابع الثنائي، وليس الإقليمي الشامل، وتنحصر بين ساستها من دون وسطاء دوليين، ويوحدها القلق من تأثير السياسات الأميركية في المنطقة بشكل عام، بوصفه أحد أهمّ العوامل الدافعة باتجاه تكثيف التحركات السياسية فيها، لكنّ ذلك لا ينفي وجود دوافع جيوسياسية مباشرة، تتمثل جملة من المخاطر التي تهدّد أمنها القومي، نتيجة النزاعات التي باتت كلفتها البشرية والمادية باهظة بالنسبة إليها، وبالتالي يصعب الاستمرار فيها.

> قد تشكل البراغماتية، أو الواقعية السياسية، دافعاً مهماً لساسة دول المنطقة باتجاه حلحلة التوترات

قد تشكل البراغماتية، أو الواقعية السياسية، دافعاً مهماً لساسة دول المنطقة باتجاه حلحلة التوترات بين أنظمة دولهم، خصوصاً بعد انقشاع وهم الرهان على حماية الولايات المتحدة حلفاءها الخليجيين، وبالتحديد السعودية التي لم توفر لها إدارة الرئيس السابق، دونالد ترامب، أيّ حماية في مواجهة هجمات الحوثيين على مفاصل حساسة في المملكة، مثل منشآت «أرامكو» بالطائرات المسيرة والصواريخ الإيرانية، على الرغم من أنّها دفعت أموالاً طائلة من أجل ذلك، بناء على مطالب ترامب. إضافة إلى أنّ إدارة الرئيس بايدن لم تلتفت إلى مطالب دول الخليج بضرورة وجودها على طاولة التفاوض النووي مع إيران، ورفضها كذلك ربط المفاوضات النووية بصواريخ إيران البالستية، وتدخلاتها السافرة في كلّ من سورية واليمن والعراق ولبنان، لكن، هل وصل الساسة في دول المنطقة فعلاً إلى الاقتناع بعدم التعويل أو الثقة بأيّ اتفاقياتٍ أمنية مع الولايات المتحدة؟

من المبكر الحكم على نتائج التحركات السياسية في المنطقة، وقدرتها على حلّ القضايا العالقة، لكنّها لن تتجاوز تهدئة التوترات، بما يعني الحفاظ على الأوضاع القائمة، مع إمكانية التوصل إلى تفكيك بعض الملفات الخلافية. وبالتالي، من الصعب القول إنّها ستقود إلى تفاهمات مشتركة حول إنهاء الأوضاع المتأزمة في كلّ من سورية واليمن والعراق ولبنان، فالاتصالات واللقاءات لن تفضي إلى بناء تفاهماتٍ على غرار ما حصل في ليبيا برعاية أميركية، لأنّ الأوضاع فيها مرهونةٌ بإرادة الدول العظمى وصراعات النفوذ والمصالح بينها، لكنّ ذلك لا يلغي أهمية التهدئة وحلحلة الخلافات، في انتظار ما ستتمخض عنه مفاوضات إيران مع المجموعة الدولية بشأن ملفها النووي، وتداعياتها على ترتيبات الأوضاع في المنطقة التي لم تتضح مآلاتها بعد.

(كاتب سوري)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

نائب رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Unit5, Central Park, Central Way, London, NW 10 7FY
Tel: 00442071480366
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ الدفنة ـ برج الفردان ـ الطابق العاشر ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads